الجهود العربيّة الحديثة لنقل المعرفة اللّسانية العالميّة.

Modern Arabic Efforts on The Transference of Global Linguistic Knowledge.

د.عبد الكريم جيدور

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، وحدة ورقلة (الجزائر)

Karimn2000@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/03/10 - تاريخ القبول: 2021/03/13 - تاريخ النشر: 2021/06/01

الملخص: يهدف هذا البحث إلى التعريف بالجهود التي بذلها الباحثون العرب لنقل المعرفة اللسانية العالمية، وهي جهود كبيرة، حاولت أن تسد ثغرة واسعة يجدها كل المشتغلين في هذا المجال، من الباحثين والأساتذة والطلبة. ولقد تطرق البحث إلى العوامل العديدة التي قادت هذا الاتجاه، ثم عرض إلى أهم مراحله، وأبرز أشكاله وصيغه. وفي النتائج تم التأكيد على ضرورة تجديد النظرة إلى هذا النشاط، وتوجيه مزيد من العناية صوبه، وتشجيع طلبة الدرسات العليا على خوض غماره، وتبني المبادرات والمشاريع البحثية التي تجمع بين عدد من التخصصات الإنسانية والاجتماعية، بما يتناسب مع كثافة المعرفة اللسانية المعاصرة، وتعقدها وجمعها بين فروع علمية بينية في إطار مشترك خدمة للمجتمع، ورقيا بالفكر اللساني المكتوب بالعربية.

الكلمات المفتاحية: جهود؛ عربية؛ حديثة؛ نقل؛ معرفة؛ لسانية؛ عالمية.

Modern Arabic Efforts on The Transference of Global Linguistic Knowledge.

Abstract:
This research aims to introduce the efforts made by Arab researchers in order to transfer global linguistic knowledge. Great efforts had been achieved, attempted to fill a wide gap that all workers in this field had been find; including researchers, teachers and students. This paper mentioned the original factors that led this trend, and then presented its most important stages, and its prominent forms. In the results, we emphasized on the need to renew the perception of this activity, direct more attention towards it, encourage postgraduate students to engage in this movement, and adopt research initiatives and projects that combine number of human and social disciplines, considering the intensity, complexity and combination of contemporary linguistic knowledge. We sagest cooperative partnerships between Intermediate scientific branches within a common framework seeking to serve the community, and rising linguistic thought written in Arabic.
Key Words:
efforts; arabic; modern; transference; knowledge; linguistic; global

1.مقدّمة:

لقد سيطرت فكرة نقل اللسانيات إلى الثقافة العربية على أذهان الكثير من اللسانيين العرب المعاصرين، ويمكن القول إن جيل الرواد من المشارقة كانوا سباقين إلى هذه النزعة، وهي عندهم أشد تميزا وبروزا، وما زال الجيل الحالي منهم ومن تلامذتهم يعكس ذلك في حركته وانشغاله العلمي بكل أنواعه؛ في الكتابة والتأليف، والتدريس، وكذلك في المشاركات واللقاءات العلمية.

يعتقد الأستاذ مصطفى غلفان، في إطار محاولته التأريخية لجذور التفاعل العربي مع اللسانيات الحديثة أن هذا الاتجاه وُجد في مرحلة مبكرة عند المثقفين المبتعثين إلى أوربا، في مرحلة النهضة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ومن الأسماء المعنيّة بهذا الأمر رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين وزكي مبارك[1].

والحق أن المبادرات الأولى لسلوك هذا المسلك، في التعامل مع اللسانيات، في أبكر مراحلها، قد جاءت من أكاديميين ممتازين، إلا أنهم لم يكونوا من المتخصصين في العلوم اللغوية، أو ممن يُتوقع اهتمامهم بهذا الشأن إلى الدرجة الكبيرة التي حصلت في تلك الأيام. وينبغي القول إن جهود هؤلاء الباحثين كانت مثيرة للإعجاب كأقل تقدير، إلا أنها اشتملت على العديد من النقائص، وربما بعض الزّهمة، كما يرى عبد الرحمن الحاج صالح في الاستنتاج الآتي: «أكبر العيوب (في المحاولات الأولى) هو أن تقدم لجماهير القراء الذين لا يملكون لغة غير لغتهم الأصلية [أي العربية] معلومات تفوح رائحة الزُّهمَة منها، فلا يُدرك القارئ العربي هذه الزهمة، فيتقبلها مطمئن البال لا يشك لحظة واحدة في طراوتها وغضاضتها. وبهذا يستوفي الشعب العربي كل شروط التخلف الثقافي دونما شعور»[2].

2. الدوافع القائمة خلف التوجّه إلى نقل المعرفة اللسانية:

وسط تراكم هائل من المعارف والمعلومات والنظريات اللسانية، التي تدفقت بشكل غير مسبوق خلال فجر اللسانيات؛ ابتداء من العقد الثالث من القرن العشرين. وجد الباحثون والمفكرون العرب، وليس اللغويون وحدهم، أنه من الضرورة بمكان نقل هذه المستجدات إلى القارئ العربي، وتحديدا القارئ والباحث والطالب الجامعي. ولا شك في أن لهذا الاتجاه مزايا وإيجابيات، وهي الأفكار أو الخواطر التي هيمنت على عقول رواده، وكانت مقنعة بالنسبة لهم، إذ دفعتهم لتحمّل مشاق السير في هذا الدرب المعقد، والطريق غير المعبد، ومن أبرزها:

أولا: اللسانيات هي **حدث علمي وثقافي غربي**، يحتاج استيعابه عربيا عملا نقليا واسع النطاق. فإذا لم نسرع إلى ذلك، بقي الجسر مقطوعا بين العرب وهذا الحدث العالمي الضخم.

ثانيا: كان لجهود الترجمة والنقل أكبر الأثر في ازدهار الحضارة العربية، وكذلك الحال عند الأمم السابقة واللاحقة. ومن الواضح أن هذا الرأي هو قياس حالة على حالة، ومع أنه صحيح من حيث المبدأ؛ إذ لا بد من المقارنة وتصفح التاريخ، والتعلم من تجارب الآخرين. غير أنه قياس مفرط التعميم لم تُراعى فيه الفوارق الجوهرية بين النماذج المطروحة.

ثالثا: اللسانيات تتطور بشكل مستمر وسريع، سواء في الطرق والمناهج التحليلية، أو في النظريات والمضامين العلمية. ولا يمكن للباحث المنفرد أن يواكب ذلك كله، وهذا يعني ضرورة تكثيف الجهود لنقل كل ما يستجد.

رابعا: هناك تمركز في الخطاب اللساني حول اللغة الانجليزية، وهذه حقيقة يصعب دحضها، إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود أعمال جيدة في غير هذه اللغة، وربما أدى هذا التمركز إلى ظاهرة خطيرة على البحث العلمي، لأننا نلاحظ تكاثر ما يسمى بملخصات البحوث؛ وهي بطاقات تعريفية موجزة يعدها الباحث بنفسه أو يستعين بغيره ممن يتقن الانجليزية، وتُسمى هذه المختصرات التي لا تتجاوز أحيانا خمسمائة كلمة "بحوثا". ومن المؤكد أن الباحث المختص لا يمكن أن يستفيد من هذه الملخصات سوى التعرف إلى من يبحث فيها. أما أن يفيده فهما لائقا عميقا فهذا غير متاح.

ومعنى الكلام السابق، أن انتشار لغة من اللغات بفعل عوامل خارجة عن نطاق البحث العلمي البحت، ينبغي أن لا يصرف همم الباحثين عن نشاط نظرائهم في لغات العالم الأخرى، وفي هذا المجال هناك بحوث كثيرة جيدة حول اللسان العربي باللغات الأسبانية والألمانية والروسية، ناهيك بما ظهر مؤخرا من زخم في البحوث باللغات الشرقية خاصة اللغة الصينية والكورية، وقد تحمل هذه الأعمال مقاربات أكثر نزاهة ومصداقية مما يكتب بالانجليزية أو الفرنسية، وأغلبه حشو منقول حرفيا عن مؤرخي القرون الوسطى المتأخرة، أو مؤرخي اللسانيات المعاصرين الذين أطلقوا أحكاما فضفاضة ومتحيزة للغاية حول تاريخ اللسان العربي، وتاريخ مدارسة وعلمائه.

خامسا: إن نشاط نقل العلوم يفيد اللغة العربية من عدة جوانب؛ فهناك فائدة مباشرة للتعبير العلمي تأتي من قوائم المفاهيم والمصطلحات الجديدة التي تتطلب تعريبا أو توليدا أو حلولا وإجراءات جديدة في مستوى المجامع والمؤسسات الترجمانية المعتمدة. وهناك فائدة للفكر اللساني العربي، من خلال إغنائه وإثرائه بآراء ووجهات نظر جديدة، أو متجددة تساهم في تعميق الملاحظات، وفتح آفاق للنقاش والتحليل، كما أن هناك فائدة عامة وهي حضور اللغة العربية في المشهد العلمي والثقافي العالمي.

3.مراحل تبلور التوجه نحو نقل المعرفة اللسانية:

منذ أن تفطن الإنسان إلى ظاهرة اختلاف اللغات، بدأ اهتمامه بمحاولة فهم ما يقوله غيره، وتعزز هذا النشاط عند ظهور اللغة المكتوبة، وتطورها المطرد في التاريخ[3]. ولا شك أن بعض الأفكار مثل: ارتباط اللغة بمستوى رقي الحضارة، أو فكرة القداسة الروحية لبعض اللغات، قد ساهمت بصورة مباشرة في رفع شأن الترجمة[4].

ولقد شكل نقل العلوم والمعرفة ظاهرة معلميّة في التاريخ العربي، ومن المعلوم أن هذا التوجه كان مدفوعا بعوامل عديدة، كان من أهمها على الإطلاق تفسير وتأويل بعض النصوص من القرآن الكريم وسنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهذا ما يؤيده المؤرخون الغربيون أنفسهم كبروكلمان وجولد تسيهر[5]. على أن الحافز الشخصي، أو حب الحكمة، كما في حالة الخليفة المأمون قد يكون باعثا قويا. كما قد يكون العامل الاستراتيجي أي: تعزيز دفاعات الأمة من خلال رفع مستواها المعرفي، كبرنامج على المدى الطويل، وهذه نظرة صلاح الدين الأيوبي وبعض الخلفاء ذوي الرؤية والبصيرة خاصة في الأندلس والمغرب الإسلامي.

وفي كل الأحوال، إذا اعتبرنا المؤثرات والعوامل التاريخية السابقة، نجد بأن انبثاق عصر النهضة العربي أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين عن حركة واسعة في اتجاه الترجمة والنقل، كان حدثا معقولا ومنسجما مع الوقائع. ولا ينبغي أن ننسى بأن هذه الحركة العلميّة كانت مدعومة بشكل واسع من قبل الحكام والسلاطين، وكذلك من جمهور الطبقة العلمائية والأدبية، ولم يشذ عن ذلك إلا حالات فردية لا تكاد تذكر.

1.3. المرحلة الأولى:

في هذه المرحلة الأولى كانت فكرة النقل بسيطة ومباشرة: هناك إنتاج علمي وثقافي مكتوب باللغات الأوربية، وبخاصة الفرنسية –التي كانت أعلى اللغات شأنا في ذلك الوقت– ثم الألمانية و الأسبانية، والروسية إلى حد ما، والمطلوب هو نقل هذه الكنوز والمفاخر العالمية إلى اللغة العربية، ومنها إلى الثقافة العربية ومنها إلى عموم الأمة.

ويُظهر إيمان الرواد الأوائل بهذا الترتيب التسلسلي لمشروعهم النهضوي مايُفسر تركيزهم على النقل كعملية مباشرة، أكثر بكثير من النشاط الترجماني المحترف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تركيزهم على التحف والنوادر الأدبية الشهيرة، ولذلك قلما نقلوا كتب العلم والمعرفة، وأكبر دليل على ذلك –فيما يخص البحوث اللغوية– أنهم لم يتطرقوا إلى النقاشات والجدالات الحادة التي نشبت في الأكاديميات والجامعات الأوربية، وفي الفرنسية منها بالذات، مع العلم أن الأخيرة هي التي أنتجت ما يعرف بثورة اللسانيات. ومن الناحية العملية، يدل تأخر ترجمة كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" لدي سوسير إلى ما بعد النصف الثاني من القرن العشرين على نفس الاستنتاج السابق. فقد ظهرت ترجماته العربية الأولى خلال 1985م، وما بعدها.

2.3. المرحلة الثانية:

برز الأستاذ علي عبد الواحد وافي، الذي يعد كتابه (علم اللغة) أبكر مؤلف شامل ومباشر باللغة العربية يُصنف في ميدان اللسانيات بمفهومها الغربي. ورغم أن النزعة التاريخية الفيلولوجية غلبت عليه، فإنه ذكر المستجدات والطوارئ المنهجية والفكرية، وسجل عددا لا بأس به من الآراء لسوسير نفسه، والنقد الموجه إليها حينئذ[6].

ومن الملاحظ أن الخلفية الأكاديمية للأستاذ وافي بوصفه باحثا في علم الاجتماع كانت طاغية في هذا الكتاب، سواء من حيث التنظيم المنهجي أو مضمون المعلومات والآراء النهائية. ونحن نعتقد أن تدريسه في جامعة القاهرة، واحتكاك كثير من اللغويين الرواد به، من أمثال: تمام حسان، وكمال بشر، وعبد السلام هارون، هو السبب الرئيس وراء تسرب أفكار علماء الاجتماع، وبخاصة الفرنسي فندريس صاحب كتاب (اللغة) وسيطرتها على تفكيرهم مدة طويلة، قبل أن يذهب معظمهم إلى أوربا ويحتكوا بالمدارس اللسانية، التي عززت عندهم نفس القناعات، أو وضعتهم أمام صراع داخلي بين السابق واللاحق.

3.3.التأثيرات الفكرية خارج التخصص اللغوي:

الشخصية العلمية الثانية التي نشطت، وأثرت تأثيرا كبيرا على رواد اللسانيات العربية هو المفكر الجزائري مالك بن نبي، فهو معروف بأبحاثه النقدية لنظرية التحليل النفسي الفرويدية، وجاء بأفكار وأطروحات كبيرة في نقد التنمية والحضارة، وفي تحليل التاريخ الإسلامي، وغير ذلك من المساهمات الكثيرة. كما كان له تأثير أكبر من سابقه؛ لأنه كان مندمجا في الثقافة الغربية بصورة شبه كاملة، وأغلب كتاباته كانت بالفرنسية، كما أن تأثيره شمل المغرب العربي والمشرق، وربما العالم الإسلامي كله، بالنظر إلى نشاطه الفعال خلال الفترة التي قضاها في إندونيسيا. وقد يكون مالك بن نبي واحدا من الباحثين المبكرين الذين شرحوا **مفهوم النظام والبنية** في ضوء علم النفس، وهو المصدر الرئيسي لهذا المفهوم، ولعب نقده للنموذج الغربي دورا مزدوجا؛ خاصة في المغرب العربي، فأصحاب الثقافة الفرنسية تراءى لهم خصما، أما أصحاب الثقافة العربية فقد ظهر لهم بطلا وعلما يفيض بالحكمة.

4.الصيغ والأشكال المعتمدة في نقل المعرفة اللسانية:

1.4. ترجمة النصوص والمختارات:

ظهر توجه لدى بعض اللسانيين المعاصرين إلى ترجمة مقاطع ومختارات من المؤلفات اللسانية التي يتميز أصحابها بالذيوع والشهرة، وكانت هذه الأعمال تلبية لمطالب وحاجات بيداغوجية في المقام الأول. وهذا يعني أن استثمارها في النشاط التحليلي، أو في عمليات البحث المباشرة لم يكن مطروحا.

والحق أنه لا يمكن الاعتماد على مثل تلك المقتطفات المجتزأة للحكم على برنامج عمل عالم من علماء اللسان أو مدرسة من مدارسه، وأما مسألة استفادة الطلاب منها في التكوين الأساسي ففيها وجهات نظر؛ هناك من يعتقد بأن هذا المسلك مفيد ويسد الثغرة المعرفية عند الطلاب، وهو الحل الأقرب إلى الواقعية نظرا لاستحالة ترجمة كل ما يتصل بهذا النشاط بالنسبة للأستاذ أو المكون الواحد. كما أن اعتماد كتاب واحد مترجم بوصفه مقررا يقرأه الطلاب، ويقوم الأستاذ بالشرح والتعليق هو أسلوب عقيم، سواء من الناحية التربوية البيداغوجية، حيث إنه يبعث على الملل وقلة المتابعة، أو من الناحية العلمية المعرفية وذلك لأنه يحصر النظرة في إطار مدرسة أو اتجاه واحد، وغالبا ما لا يشتمل على النقد أو الرد الذي يبين ثغرات النظرية، وما تقترحه من حلول لسد تلك الثغرات.

ولقد اقترح بعض الأكاديميين أن تكون الكتب العامة التي تتناول الفكر اللساني العالمي، وتصنف اتجاهاته هي المنطلق مثل محاولة ميلكا إفيتش، ومحاولة رومان جاكبسون التي نشرتها اليونسكو. ولئن كان لهذا الاقتراح وجاهته، وكثير من الفوائد القيمة التي يمكن أن يحصل عليها الطالب والأستاذ من مثل هذه المؤلفات المرجعية، التي تدرس لنفس هذا الغرض في عدد معتبر من الجامعات الأوربية والأمريكية، ولكن عيبها أنها **تُظهر الاتجاهات بشكل غير متواز**، كما أنها لا تخلو من مركزية فكر الباحث ونزعته الشخصية في البحث؛ فدراسة الباحثة الصربية ميلكا إفيتش التي تعد نموذجية من حيث خطابها العلمي، يعيبها التمركز الشديد حول الاتجاه البنوي، وبخاصة نظرة المدرسة السلافية، أو ما يعرف بالنزعة الشكلية عند جماعة براغ، ولهذا نلاحظ أن تحليلها يتميز بقوة برهانية مقنعة وآسرة عند مقاربة مفاهيم النظام والبنية والشكل، بينما يقل النفس التحليلي ويُختصر في غير ذلك من الاتجاهات.

أما محاولة رومان جاكبسون فهي تقرير غزير المادة تطرق فيه إلى معظم النزعات وجُل العلماء الفاعلين في ميدان البحث اللساني، ويتضح من التتبع أنه أثبت آراء ما يزيد على المائتين من الباحثين، في فترة وجيزة متزامنة لا تعدو قرنا على الأكثر، وتبعا لذلك، كان تحليله مقتضبا للغاية وشديد التركيز، وكثيرا ما يمر على المفاهيم الأساسية مرورا خاطفا، وبالتالي لا تكون دراسته ملائمة للطالب المبتدئ وذلك لصعوبة الإلمام بكل ما أثبت فيها من المفاهيم والآراء الدقيقة.

2.4. ترجمة المؤلفات التمهيدية وذات الشهرة الواسعة:

كان من أول المؤلفات التمهيدية التي تُرجمت كتاب (اللغة) للمستشرق الفرنسي جوزيف فندريس، أنجزها الباحثان: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. وكان لهذا الكتاب تأثير عميق جدا على أغلب رواد علم اللغة في مصر، بل وفي باقي أقطار المشرق العربي. والفكرة الرئيسة التي بُني عليها هذا الكتاب هي أن اللغة ظاهرة اجتماعية. ولقد أُعجب بهذه الفكرة كثير من اللغويين العرب، وحتى من نقاد الأدب ورجال الفكر والإعلام، فلقيت صدى، وصارت كالمتن أو كاللازمة في مؤلفات الأساتذة المشهورين أمثال: تمام حسان وأحمد مختار عمر وكمال بشر وحماسة عبد اللطيف وإبراهيم أنيس وغيرهم.

ومن الكتب الهامة جدا كتاب (العربية) الذي ألفه يوهان فك، وترجمه المحقق الكبير عبد الحليم النجار سنة (1962م) وظل–مع الأسف– مغمورا، فلم يستفد منه الباحثون في المشرق لغلبة الكتابين السابقين، وهيمنتهما على أفكار أغلب الرواد.

وكان هناك اهتمام مبكر بترجمة بعض المؤلفات الهامة في علم الأصوات ولعله من أسباب النضج المسبق لهذا الميدان في الدرس اللغوي العربي المعاصر مقارنة بالميادين الأخرى كعلم الصرف والنحو. ومن أوائل الكتب المهمة في هذا الميدان كتاب (دروس في علم أصوات العربية) لجون كانتينو، ترجمه الأستاذ صالح القرمادي سنة (1966م)، وكتاب (التفكير الصوتي عند العرب) للمستشرق الكبير هنري فليش، ترجمه الأستاذ عبد الصبور شاهين سنة (1968م) وكتاب (الأصوات والإشارات) لكندراتوف ترجمه الأستاذ شوقي جلال سنة (1972م).

ويلاحظ أن بعض الكتب الهامة تأخرت ترجمتها لأسباب مُبهمة، فعلى سبيل المثال: تُرجم كتاب (المحاضرات) المنسوب إلى فرديناند دي سوسير عدة مرات أولها ترجع إلى سنة (1985م)، وكذلك الكتاب الهام (اللغة وعلم اللغة) للغوي الانجليزي البارز جون لايونس، ترجم أول مرة سنة (1987م) من طرف مصطفى التوني، وكتاب (اتجاهات البحث اللساني) للباحثة الصربية ميلكا إفيتش الصادر في أوائل الستينيات، لم يحظ بفرصة الترجمة إلا في سنة (2000م) أي بعد حوالي أربعين سنة من صدوره، وهي مدة طويلة. والحال نفسها بالنسبة للتقرير الدولي الهام الذي أنجزه رومان جاكبسون لصالح اليونسكو أواخر الستينيات بعنوان (الاتجاهات الأساسية في علم اللغة) فلم يحظ بالترجمة إلا سنة (2002م). والكتاب الهام (موجز تاريخ علم اللغة) للمؤرخ الانجليزي هنري روبنز تأخرت ترجمته إلى سنة (1997م) ترجمه الأستاذ أحمد عوض[7] وصدّره بمقدمة حول مفاهيم الصوتيات والفونولوجيا الغربية مع ما يقابلها في البحوث العربية.

وأول ما يسجل على هذه الجهود خاصية الفردية والانعزال، منذ البواكير الأولى وحتى يومنا هذا، ويصح أن نشير إلى مشاريع الترجمة الجماعية أو المشاريع القومية للترجمة بوصفها مبادرات وأفكار مطروحة، أما النشاط والإنجاز العملي الملموس فما يزال بعيدا عن التطلعات، وكل الفاعلين في هذا المجال يدركون هذه الحقيقة، ويصطدمون بها في نشاطهم البحثي، ويقر بها التراجمة هم أنفسهم.

وهناك ملاحظات وجيهة أخرى تخص اللغة التعبيرية، والإطار الشكلي للترجمة العلمية الخاصة بميدان اللسانيات، والمقاربات والأفكار حول تعاون علماء اللسان مع خبراء الترجمة. وتظهر مشكلة اللغة التعبيرية من خلال القاموس المصطلحي الخاص بالمترجم، وهو الذي يندرج في نشاطه بصورة تلقائية، لأنه حاصل خبرته وخلفيته الأكاديمية، فنجد في كتب خاصة بالاتجاه التوليدي أفكارا خاصة بالاتجاه البنوي أو الوظيفي الذي يختلف عنه في عدد من الأسس والقضايا. ومرد ذلك إلى خلفية المترجم التي تطغى من دون تعمد منه، وهو مع ذلك مطالب بتوخي الحذر من تسرب هذا المعطى، الذي يُخلخل النص الأصلي، وقد يحرفه عن مقاصده.

3.4. ترجمة الأعمال الكاملة:

طرح بعض الباحثين فكرة أن يتخصص باحث أو أكثر في ترجمة اتجاه لساني محدد، أو متابعة إصدارات عالم من مشاهير علماء اللسان في العالم، وممن طبقوا هذه الفكرة و حرصوا على تنفيذها الباحث السعودي (حمزة بن قبلان المزيني) الذي تخصص في ترجمة إصدارات نوام تشومسكي. فقد ترجم له كتاب (اللغة ومشكلات المعرفة) وكتاب (آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل) وكتاب (اللغة والطبيعة)، وتميز بمعرفته الشخصية بالمؤلف، ومراسلاته معه بغرض تدقيق المفاهيم، وهذه عناصر إيجابية تدعم الترجمة شكلا ومضمونا.

4.4.النقل الحرفي للمناهج والمضامين في التدريس والتحليل العلمي:

طبق فريق من الباحثين فكرة النقل المباشر للمضمون المنهجي الخاص بمدرسة أو اتجاه لساني معين، وذلك مثل محاولات كل من: ميشال زكريا، وخليل عمايرة، ومحمد فتيح، وعبد القادر الفاسي، كلهم في مجال نقل المنهج التوليدي. ومحاولة أحمد المتوكل لنقل المنهج الوظيفي، ومحاولة محمد غاليم لنقل نظرية الدلالة التصورية وهندسة الدلالة النحوية المتوازية أو النظرية التوليفية لجاكندوف.

وهذا يعني أن المواكبة حاصلة بالفعل، وقد تحقق منها تراكم معتبر. إلا أن استفادة الطالب والأستاذ من هذه الجهود ما تزال قليلة، وذلك لأنها لم تنتظم في إطار تاريخي محدد، كما أنها لم تلتزم خطا موحدا في نشاطها، فهي خاضعة لاختيارات أصحابها، وهي اختيارات فردية. فلو نظرنا في جهود ميشال زكريا

نجده مركزا على نقل المضمون التوليدي فيما يخص القواعد النحوية؛ تحليلا وبناء، ثم يقارنها بنفس المستويات في اللغة العربية. وقد تكلم عن الجملة وطريقة تحليلها في ضوء التصميم الشجري، وحاول تطبيقه على الجملة العربية. ولاحظنا في البحوث التي ناقشت جهوده، ما يفيد بأن الباحثين اعتبروا وجود تحليل المركب المكوني وانقسام الجملة إلى مكونات قريبة حاصلا بالفعل في اللغة العربية، وهذا تجاوز كبير.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الأستاذ محمد غاليم (من معهد الدراسات والأبحاث للتعريب–الرباط)[8] يقدم نظرية الدلالة التصورية أو التوازي النحوي (Combinatoriality) كما لو أنها إطار فُصل القول فيه، فيدخل مباشرة في اشتباكها المنهجي والمعرفي مع التوليدية، فيقرر على الفور تجاوزها لها، واكتمال تصوراتها. وله الحق أن يتبنى ما يشاء من النظريات، بيد أنه فيما يخص ترجمة هذا السلوك وانعكاسه على المناخ الاستقبالي لهذا النوع من المعلومات التقنية المعقدة، لا يتوقع أن يكون فيه فوائد، نظرا لكون متعلَّق التحليل، وهو "التوليفية" نظرية جديدة ما زالت محل نظر وفحص في الولايات المتحدة والعالم، وقد حاول زعيمها راي جاكندوف (Ray Jackendoff) وزميله ستيفن بينكر(Steven Pinker)[9] أن يُقنعا جمهور العلماء في مؤتمر عُقد في الكامبردج سنة 2011م، بعنوان (خمسون سنة من اللسانيات في الكامبردج) حضره تشومسكي ودافيد كريستال وغيرهم من العلماء المتصدرين، ووقع بينهم جدل كبير، ولم يستطع أحد أن يقنع الآخر إقناعا مرضيا[10].

5.الجهود المؤسسيّة في مجال نقل المعارف اللسانية:

يلاحظ افتقار الفضاءات العربية إلى المشاريع المنظمة في مجال ترجمة العلوم بصفة عامة، وترجمة الإنتاج اللغوي واللساني العالمي الضخم بصفة خاصة. لقد أعلن عن تأسيس المنظمة العربية للترجمة يوم 29 كانون الأول/ديسمبر 1999، في اجتماع تأسيسي انعقد في بيروت، تحقيقاً لمشروع طالما عبر المثقفون العرب عن ضرورة انجازه، باعتبار الترجمة سنداً نهضوياً سواء من حيث نقل المعارف ونشر الفكر العلمي أو من حيث تطوير اللغة العربية ذاتها.

وتظم المنظمة عدة لجان علمية من بينها لجنة (اللسانيات والمعاجم) التي أصدرت ثلاثا وعشرين مؤلفا خلال السنوات الخمس الأخيرة، بمعدل (4.6) كتابا في السنة. ورغم غلبة الإصدارات اللسانية (15

مؤلفا) على الإصدارات المعجمية (8 مؤلفات) فإنها تغطي الجوانب النقدية والأدبية العامة أكثر بكثير من الجوانب اللسانية الأخرى.

ومن الواضح أن إنتاج هذا المشروع الذي يدعمه عدد من الهيئات الرسمية والاعتبارية قليل جدا، ولا يغطي النقص الكبير المسجل في هذا المجال. ويطرح فيه أيضا مشكل اختيار العناوين، لأن بعضها يرجع إلى فترات قديمة نسبيا. والظاهر أن هذا الأمر متروك لاهتمامات المترجم نفسه، ولا يمكن الحديث عن نشاط ترجمي متخصص يدعم البحث العلمي بصورة دائمة ومنتظمة مع هذه المقومات. و لذلك يبدو أن هذا المشروع هو محاولة لتوفير مادة عربية للمثقف العربي، و لا يعد الباحث المتخصص من جوهر اهتماماتها.

ويمكن القول إن مشاريع الترجمة الفردية كانت أكثر نجاحا في دعم الباحث رغم قلة إنتاجها، وخضوعها لمقاييس ضيقة، وقد يكون السبب الرئيسي وراء هذا الاستثناء أن الباحثين في الميدان اللغوي هم أنفسهم من يبادر إلى هذه الجهود ولذلك يأتون في الغالب بما يكون حاجة ومطلبا ملحا بالنسبة لفريق معتبر من الباحثين الذين يشاركونهم نفس الانشغالات. ومن الأمثلة على ذلك مبادرة بعض الباحثين لترجمة ما ظهر حديثا في مجال تاريخ اللسانيات، نتيجة لما شعر به كثير من رواد هذا الميدان من نقص وافتقار شديد، يعم المكتبة العربية في هذا النوع من البحوث. وفي هذا الإطار قام الأستاذ محمد توفيق البجيرمي بترجمة كتاب (إمبراطوريات الكلمة) الذي ألفه نيقولاس أوستلر، صدرت الترجمة سنة 2011م[11] وهذا الكتاب مميز في منهجه، وفي غزارة المادة العلمية، وكثرة التوثيقات الأثرية التي أثبتها. وفيه ميزة غاية في الأهمية وهي تطرقه بشكل منصف ومفصل للجهود العربية الإسلامية في مجال العلوم اللغوية. وهذا وحده كاف ليقع العمل على ترجمته. وقد استهل الكتاب بمثل عربي ترجمه المترجم بما يلي (قوة الإنسان في عقله ولسانه)[12].

كما قام الأستاذ سعيد حسن بحيري بترجمة كتاب (تاريخ علم اللغة الحديث) للمؤرخ والفيلسوف اللغوي الألماني جرهارد هلبش (Helbig Gerhard) سنة 2003م[13]. ورغم أن الكتاب قديم نسبيا إذ ترجع طبعته الأولى إلى سنة 1974م (قبل حوالي 40 سنة) و لكنه يقدم مستوى من العرض والتحليل لا نجده في أي من المؤلفات الفرنسية أو الإنجليزية المعروفة، كما أنه يتميز بعرض مفصل لجهود اللغويين الألمان، وفيه كلام منصف لجهود اللغويين الروس. كما عقد بحثا خاصا لجهود (شوميان) أحد العباقرة

الذين تزامنوا مع تشومسكي، وغطى عليه هذا الأخير بسبب الهالة الإعلامية. وترجم الأستاذ بحيري كتابا آخر لهلبش وهو (تطور علم اللغة منذ 1970م) صدر سنة 2007م[14]، وترجع طبعته الأولى إلى سنة 1986م، وهو كتاب هام جدا، قدم كل الأفكار والنظريات اللغوية خلال فترة قصيرة محددة لا تتجاوز خمسة عشر عاما (1970–1985م) وكلا الكتابين مترجمان عن الألمانية، ويستنتج منهما الخلل الفادح الذي أحدثه تمركز الترجمة العربية على الفرنسية والإنجليزية بشكل مطلق خلال السنوات الأخيرة.

ومن المحاولات المميزة ما قام به الثلاثي: محمد غاليم و محمد الرحالي وعبد المجيد جحفة من ترجمة لدراسات هامة قام بها كل من: راي جاكندوف ونوام تشومسكي ورينو فندلر، حيث تكفل كل باحث بدراسة، وهذه الدراسات تتميز بتركيزها المعلوماتي وتعقيد مفاهيمها، ولذلك كانت ترجمتها إلى العربية جهدا هاما في تزويد الباحثين بمعلومات عربية حول هذا النوع من البحوث.

6.نتائج الدراسة:

إن فكرة النقل تنطلق من أساس صحيح وهو وجود فرق في الوعاء اللغوي الحاضن للإنتاج اللساني، واستحضار اللسانيات إلى أمة لسانها الثقافي والعلمي –في أغلب أطواره– هو اللغة العربية، وذلك يتطلب وسيطا يفعّل حركية النقل من هنا إلى هناك. وبما أن العناصر المنقولة عُرضة للتحوير والتبديل، لأنها مفاهيم وتصورات علمية، فقد كان هذا التفكير عُرضة بدوره لمساءلات نقدية منذ بواكيره، وإلى يومنا هذا. وهذه المساءلة، حالة طبيعية وسليمة طالما التزمت بالأصول.

ولقد طرح بعض الباحثين فكرة تكوين اختصاصيين في علم المصطلحات والترجمة المتخصصة، وذلك لسد الفراغ الكبير الذي يعاني منه الوطن العربي في هذا المجال[15]. وهذا الفراغ يهدد مكانة اللغة العربية أيما تهديد، وبالتسلسل، لاشك في أنه يؤثر أيما تأثير على مستقبل البحث العلمي الخاص بهذه اللغة.

وما يمكن قوله أن هذا الاتجاه يتطلب مزيدا من التركيز، لأن فوائده العملية كبيرة وواضحة، ولا يمكن أن يصل إلى غاياته بواسطة الجهود والمبادرات الفردية لأنها أشبه بمن يحفر الصخر بيدين عاريتين، فلا بديل عن الدعم والمواكبة الرسميّة حتى ننتقل من النشاط الهاوي إلى العمل المنظّم المستمر.

مراجع الدراسة:

1. توبي هف، فجر العلم الحديث، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع260، أغسطس 2000م.
2. توفيق قريرة، الترابط الذهني بين المستويات اللغوية، ضمن (آفاق اللسانيات) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1-مارس 2011م، ص67-102.
3. جرهارد هلبش، تاريخ علم اللغة الحديث، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1-2003م.
4. جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ عام 1970، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1-2007م.
5. عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ط1: 2007م.
6. ـــــــ ، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (جزآن)، موفم للنشر، الجزائر، ط1: 2007م.
7. ـــــــ ، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ط1: 2012م.
8. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط11-2006م.
9. محمد غاليم، هندسة التوازي النحوية وبنية الذهن المعرفية، ضمن (آفاق اللسانيات) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1-مارس 2011م، ص 51-66.
10. مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين، المدارس للنشر، الدار البيضاء، ط1-2006م.
11. نيكولاس أوستلر، إمبراطوريات الكلمة، تر: محمد توفيق البيجرمي، دار الكتاب العربي بيروت، ط1-2011م.
12. هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع227، نوفمبر 1997م.
13. Steven Pinker & Ray Jackendoff, The Faculty of Language : What's special about it. Elsevier (Cognition) 2004, pp201-235.

الهوامش:

[1]–مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين، المدارس للنشر، الدار البيضاء، ط1–2006م، ص8 وما بعدها.

[2]–عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 9. والزهمة هي الرائحة المنتنة أو اللحم السمين العفن. والمعنى هو جمال وحسن المظهر، و سوء وخطر الباطن والجوهر.

[3]–نيكولاس أونستلر، إمبراطوريات الكلمة، تر: محمد توفيق البيجرمي، دار الكتاب العربي بيروت، ط1–2011م، ج1–ص68 و ما بعدها.

[4]–هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ص 15.

[5]–توبي هف، فجر العلم الحديث، تر: محمد عصفور، ص345.

[6] – علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط11–2006م، ص 266–267.

[7] – هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع227، نوفمبر 1997م.

[8] –انظر بحثا له بعنوان: هندسة التوازي النحوية وبنية الذهن المعرفية، ضمن (آفاق اللسانيات) الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1–مارس 2011م، ص 51–66.

[9]–انظر دراسة للباحثين المذكورين في الرد على تشومسكي و غيره من القائلين بمركزية التكرار (recursion) و التمييز بين المقدرة اللغوية بمعناها الشامل (FLB) و الأخرى بمعناها الخاص أو الضيق (FLN). عنوان الدراسة (المقدرة اللغوية: ما الجديد المميز حولها؟) Steven Pinker & Ray Jackendoff, **The Faculty of Language : What's special about it**. Elsevier (Cognition) 2004, pp201–235.

[10]. أنظر البحث الآتي: توفيق قريرة، الترابط الذهني بين المستويات اللغوية، ضمن (آفاق اللسانيات) الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1–مارس 2011م، ص67–102.

[11]–نيقولاس أونستلر، إمبراطوريات الكلمة: تاريخ للغات في العالم، تر: محمد توفيق البجيرمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1–2011م.

[12]–ذكره في أول تمهيد الكتاب معلقا (مثل عربي) ص20. ولعل معناه متحقق في الكثير من النصوص، ومنها القول المأثور: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» والقلب كلمة من المشترك تدل في كثير من الأحيان على القوة العاقلة، كما في قول المولى عز وجل:«لهم قلوب لا يفقهون بها» [الأعراف/179]

[13] – جرهارد هلبش، تاريخ علم اللغة الحديث، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1–2003م.

[14] – جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ عام 1970، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1–2007م.

[15] – عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1– ص372.